الفصل الثالث:
موقعة الخندق

خرج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه من موقعة أحد.. مستخلصين عبرها... وأصبح القتال في سبيل الله في عرفهم طريق واحد في صحراء يؤدي إما إلى انتصار دعوتهم ورسالتهم، أو إلى جنة الله لا مكان فيه لمطامع أو مغانم دنيوية.. وما كانت أحد فيه سوى محطة.. صحيح أنها أحرقت بدل أن تظل.. ولكنها وإن كانت أحرقت الجسد.. فقد ألهبت القلب وأعلت من درجة اشتعال الروح...

تحركت قريش وألبت القبائل واندفعت نحو المدينة في عشرة آلاف بالإضافة إلى اليهود لكي تؤدب محمداً صلى الله عليه وسلم الذين لم يكن يزد جيشه آنذاك على ثلاثة آلاف وكان هذا في شوال لسنة خمس هجرية (627م). وكان هذا الجيش الذي تحركه قريش أكبر جيش تحرك على أرض الجزيرة العربية في تاريخها وأخذ النبي يغرق في الأفكار.. أليس بشراً؟ وبدأ يستشير أصحابه.. اتباعاً لما أمره الله جلا وعلا به (وشاورهم في الأمر) فيما لم ينزل فيه وحي..

فتقدم له سلمان الفارسي بفكرة جديدة لم تكن معروفة في الجزيرة آنذاك من قبل - وهي فكرة حفر خندق يحيط بالمدينة يمنع الجيش القادم من القدرة على المناورة أو الهجوم.. وليس هذا دليلاً على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتصرف تصرفاً بشرياً، ويأخذ بآراء صحبه وأتباعه في فترات غياب الوحي عنه فحسب، بل هو أيضاً

دليل بين على أن الله عز وجل يريد من المسلمين على مختلف أجناسهم وأعراقهم خاصة بعد انتقال رسولهم للرفيق الأعلى وانقطاع الوحي بموته وانتقاله - أن يكونوا جبهة واحدة قوية تعمل عقولها بالتشاور معاً لتجاوز أي عقبة وأي محنة تواجههم أو تواجه الدعوة لدينهم، وأن يعدوا لذلك كل ما استطاعوا من قوة، وأن تكون قوتهم جميعاً موجهة ضد هدف واحد هو عدو الله وعدوهم.. الذي يريد دحرهم والقضاء على دعوتهم إلى هذا الدين العظيم القيم..

ووافق الرسول وصحبه على فكرة حفر الخندق بعد تشاور وتمحيص لها - وسرعوا على الفور في تنفيذها.. وتروي لنا كتب السيرة أن العمل في حفر هذا الخندق استعداداً لهذه الموقعة كان مضنياً وشاقاً للغاية بكل ما تحمل هذه الكلمات من معان... إذ لم يكن مع المسلمين عبيد يعملون لهم كما هي العادة في مكة - إذ كان إسلامهم قد حررهم ولم تكن الأقوات كافية لهذه السنة.. ويكفي أن نعلم أن النبي كان وهو يعمل في الحفر مع المسلمين كان يربط على بطنه حجراً للتغلب على الجوع... مشهد روحي رائع.. جيش يقاوم شدة الحرارة والجوع والعطش ويضرب بمعاوله في الأرض... يريد فتح طريق له في السماء... إن حالة المشاركة الجماعية هذه من أجل هدف واحد... لابد وأنها أدت إلى حالة روحية راقية طيبة.. تأمل في النصر الذي لا يأتي إلا من عند الله العلي القدير.. بعد استيعاب درس أحد... الذي برهن لهم على أنه عندما تترنم الأفئدة بعيداً عن مطامع الدنيا وشهواتها... وتتوافق العقول والأجسام في تواضع وإنكار للذات وتتوحد الأهداف في هدف واحد هو التضحية بالنفس من أجل المبدأ تأتي رحمة الله...

لقد قيل طبقاً لما تؤكده كتب السيرة أن صخرة ضخمة ذات صلابة شديدة اعترضت سر الحفر فجاء الرجال إلى النبي يسألونه عما يفعلون بعد أن عجزوا جميعاً عن تحطيمها... فقام صلى الله عليه وسلم رغم ما كان يؤديه من عمل شاق ومرهق في الحفر وهوى عليها بمعوله عدة مرات فأمكنه أن يحطمها تدريجياً.. وهنا يعجب الإنسان... أكان صلى الله عليه وسلم أقوى بدنياً من كل هؤلاء أم في يده قوة روحية جبارة تعينه وقت الحاجة..

يقول علم الروح الحديث:

أن الوسطاء الروحيين... يمكن أن تعطيهم الروح قوة وقت الحاجة يستغلونها كيفما يشاءون في أعمال الخير.. فكيف بأعظم وسيط بين الأرض والسماء على وجه الأرض.. لقد أصبحت هذه الصخرة لينة أمام قوة الروح المنبعثة منه.. مثلما يصبح الحديد ليناً أمام النار...

وهذا يمكن تفسيره بأن ترتيب جزيئات الصخرة وخواصها الفيزيقية يمكن أن تتغير بحيث تقل صلابتها بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، في حين أنها قد تبدو صلبة أمام أعين صحبه وتابعيه الناظرين...

وهنا قد يثور التساؤل... لم لا تساعده هذه القوة الروحية أن تشعره دائماً بالشبع.. وهذا ما قد فعله أولياء أو وسطاء دون محمد صلى الله عليه وسلم شأنا ومكانة..

قص علينا الشيخ الدباغ في " الإبريز " حكاية عن سيدي منصور - كيف كان يبكي فقال له الشيخ: ما يبكيك، فقال: أي شيء

أصلح له؟ إني أشاهد الآن فعل الله تعالى في حالة النسج فكنت أظن أني أصنع شيئاً فإذا غيري هو الذي يصنعه " فنجد هنا إذن أن الأرواح كانت تشاركه في عمله وهو النسيج.

وهنا يبرز سمو ورقي وعظمة خلق محمد النبي الرسول... فلم يكن ليطلب العون في مثل هذه الأمور إلا للصالح العام أي من أجل الرسالة التي أرسل من أجلها أما شخصه ونفسه فلم تكن لديه هدف لطلب العون أبداً.. بل العكس كان يحلو له تحمل مشاق أكبر بكثير من التي يتحملها صحبه وتابعيه... ويحلو له الجوع معهم.. وإذا ما شبع يحلو له الشبع معهم.. ومن هنا كانت مكانة محمد صلى الله عليه وسلم... وجزاؤه الذي ينتظره في أعلى مراتب عالم الروح...

لقد أراد العلي القدير سبحانه وتعالى أن يهب الرسول هذه القوة الروحية الهائلة وأن يجري على يديه معجزات وآيات بينات بالإضافة إلى خلقه العظيم وتواضعه الجم ومشاركته فيما يقومون به... ليزداد إيمانهم وتوقيرهم ومحبتهم له...

قال ابن إسحاق:

(وكان في حفر الخندق أحاديث فيها عبرة في تصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون، فكان فيما بلغني أن جابر بن عبد الله كان يحدث أنه اشتدت عليهم في بعض الخندق كدية فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا بإناء من ماء فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله أن يدعو به، ثم نضح ذلك الماء على تلك الكدية، فيقول من حضرها: فوالله الذي بعثه بالحق نبياً لانهالت حتى عادت كالشيب، لا ترد فأساً ولا مسحاة..) 325 /

صحيح السيرة / صحابة / 1351

وقال:

(وحدثني سعيد بن ميناء، عن جابر بن عبد الله، قال: عملنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق، فكانت عندي شويهة (شاه صغيرة) غير جد سمينة، قال: فقلت: والله لو صنعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فأمرت امرأتي، فطحنت لنا شيئاً في شعير صنعت لنا منه خبزاً وذبحت تلك الشاة فشويناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: فلما أمسينا وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الانصراف عن الخندق قال: وكما نعمل فيها نهارنا، فإذا أمسينا إلى أهالينا قال: قلت: يا رسول الله، إني قد صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعت معها شيئاً من خبز هذا الشعير، فأنا أحب أن تنصرف معي إلى منزلي، وإنما أريد أن ينصرف معي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، قال: فلما أن قلت له ذلك قال: نعم ثم أمر صارخاً فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر بن عبد الله، قال: قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، قال: فأقبل رسول لله صلى الله عليه وسلم وأقبل الناس معه، وقال: نجلس وأخرجناها إليه: قال فبرك وسمي (الله)، ثم أكل، وتواردها الناس كلما فرغوا قاموا وجاء ناس، حتى صدر أهل الخندق عنها) " 326 / صحيح السيرة / صحابة / 1353).

وقال ابن إسحاق:

(وحدثت عن سلمان أنه قال: ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت على صخرة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني،

فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان على نزل فأخذ المعول من يدي فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة، قال: ثم ضرب به ضربة أخرى فلمعت تحته برقة أخرى قال ثم ضرب به ثالثة فلمعت تحته برقة أخرى، قال: قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: أوقد رأيت ذلك يا سلمان؟ قال: قلت: نعم، قال: " أما الأولى فإن الله فتح على بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح على بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق: ". 326 / صحيح السيرة / صحابة / 1354.

وقال:

(وحدثني من لا أتهم عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: افتتحوا ما بدا لكم، فوالله الذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه وتعالى صلى الله عليه وسلم مفاتيحها قبل ذلك) 326 / صحيح السيرة / صحابة / 1355.

ولنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في خندقه والجهد والعرق يتملكانه هو وصحبه، وكان صلى الله عليه وسلم كلما بذل من جهده دفعة نطقت شفتاه نبوءة، فإن الروح القدس يريه بالجلاء البصري البعيد أين تقع ضرباته، إنها لا تقع على جانب الصخر الذي أمامه بل على حوائط الوثنية وحصون العبودية في كل أنحاء الأرض... فها هو يقول: ♂**الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله لأني أبصر قصورها الحمر الساعة**═ وفي المرة الثانية يقول: ♂**الله أكبر أعطيت مفاتيح**

فارس والله أني لأبصر قصر المدائن الأبيض الآنـــ.. وفي المرة الثالثة يقول:♂**والله أني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة**... ـــ.

نعم لقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى حقيقة فإن الجلاء البصري البعيد يعمل كل هذا وبه يمكن للإنسان الذي منحه العلي القدير هذه الموهبة أن يرى ذلك.. ولا يستبعد أيضاً أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد ذهب في شبه غيبوبة وهو يستجمع قوته لكسر الحجر وفي تلك الغفوة التي لم تتجاوز كسراً في الثانية رأى تلك الرؤيا السريعة ترسم بجلاء أمام بصيرته لتطمئنه على نجاح هذا المجهود وفاعلية هذا العرق والتعب في المستقبل..

على أن كثرة عدد العدو وعدته واستعداد المسلمين على مواجهة هذه الكثرة بإيمان راسخ واجتهاد في الأسباب لم تؤد إلى الالتحام.. فلقد أراد العلي القدير تدبير أن يأتي النصر من عنده كافياً المؤمنين شر القتال... فلقد جلت قريش عن مواقعها بسبب عوامل خارجية عن إرادتها... فلقد اختلفت مع بني قريظة لأن هذه الأخيرة رفضت قتال الرسول صلى الله عليه وسلم في اليوم التالي الذي كان يوم سبت - كما اختلفت مع غطفان لأنها اتفقت مع الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يعطيها ثلث ثمار المدينة على ألا تشترك في القتال...

وفي نفس الليلة تهب ريح عاتية تحط من الروح المعنوية لقريش حتى قال في ذلك أبو سفيان: (يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم في دار مقام لقد هلك الكراع والخف، واخلفنا بنو قريظة، وبلغنا منهم ما نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء... فارتحلوا إني مرتحل) وبذلك حملت

قريش عصاها على كتفها ورحلت وجاء الصباح فإذا العدو قد جلي وكفى الله المؤمنين شر القتال.

وكانت فرحة المسلمين بجلاء عدوهم راجعاً ليقينهم بتأييد الله تبارك وتعالى لهم... سواء بتدبير الفرقة بين حلف الشرك والكفر ومن يساندونه للقضاء على الدعوة المحمدية لعبادة الله الواحد الأحد الديان واتباع شرعته الوضاءة.. أو بإرسال ريحاً شديدة عاتية على معسكر الكفر والشرك... حتى أن بعضهم لم يكن يستطيع أن يرى البعض الآخر... أو يتمكن من ربط خيامه وخيله.. أو إبقاء نار للرؤية...

والطبيعة سلاح بتار... فقد أهلك الله عادا بالريح من قبل.. وأهلك نوحا بالطوفان.. كما قد تغيرت صفحات من التاريخ بذلك السلاح.. فقد انهزم نابليون عندما اشتد شتاء روسيا القارص... وانهزم مرة أخرى في موقعة واترلو بعد سويعات من سقوط مطر شديد... وانسحب الإنجليز من دنكرك بسبب الضباب يومذاك... إذن ليست الطبيعة سلاحًا يستخدمه العلي القدير للهلاك فحسب بل أيضاً لترجيح كفة على كفة وللعلي القدير حكمة في ذلك كله قد لا تفهمها البشرية إلا بعد حين.

جلت قريش وعادت إلى مكة وانصرف اليهود إلى قراهم وحصونهم وعاد المسلمون إلى المدينة، ولكن جبريل عليه السلام لحق بالرسول صلى الله عليه وسلم عند وصوله إليها.. وفي هذا تقول السيدة أم المؤمنين عائشة ♥ أنه عندما انتهت المعركة ورجع الرسول إلى بيته " وضع السلاح واغتسل فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار فقال وضعت السلاح فوالله ما وضعته فقال الرسول

فأين؟ قال ها هنا وأومأ إلى بني قريظة).

وكان يهود بني قريظة أقوياء ومدججين بالسلاح.. وفي وسعهم أن يهجموا على المسلمين بغتة كعادتهم.. لكراهيتهم الشديدة للرسول صلى الله عليه وسلم ولدعوته وللمسلمين.. لأنهم كانوا لا يتوقعون أن تنقطع النبوة في بني إسرائيل.. وكانوا ينتظرون أن تكون النبوة في هذا الزمان وهذا المكان منهم لا من العرب وكانوا يعدون أنفسهم لذلك ويتوعدون العرب بهذا النبي القادم منهم... مما ولد في نفوسهم هذا العداء الشديد وهذه الكراهية المقيتة للرسول صلى الله عليه وسلم ولدعوته... وحاولوا قتله عدة مرات.. رغم أن وصفه مكتوب وبوضوح تام لديهم في كتابهم...

والمسلمون، وضعوا السلاح فلما كان الظهر أتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حدثني الزهري... معتمرا بعمامة من إستبرق على بغلة عليها رحالة قطيفة من ديباج، فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل: ♂**فما وضعت الملائكة السلاح بعد وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم**ـــ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً فأذن في الناس: ♂**من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر ـ إلا ببني قريظة**ـــ واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فيما قال ابن هشام. " 331 / صحيح السيرة / صحابة /1377 ".

وقال ابن إسحاق:

(وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسًا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب، وقد كان حيي بن أخطب دخل مع بني قريظة في حصنهم - حين رجعت عنهم قريش وغطفان.. وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه، فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل وإنه الذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين!!؟ فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة سبت وأنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها أنزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ، قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة في الدهر حازماً..) " 331 / صحيح السيرة / صحابة / 1380 ".

وقال:

(ثم أنهم بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس لنستشيره في أمرنا فأرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم وقالوا له: يا أبا لبابة، أترى أن تنزل على حكم محمد؟ قال: نعم وأشار بيده إلى حلقه، أنه الذبح: قال: أبو لبابة فوالله مازالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم انطلق أبو لبابة عن وجهه، ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت، وأعاهد الله ألا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أحد..) " 322 / صحيح السيرة / صحابة / 1281 ".

وقال:

(فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ♂**قوموا إلى سيدكم**▬ فأما المهاجرون من قريش فيقولون: إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار وأما: الأنصار فيقولون: قد عم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، إن الحكم فيهم لما حكمت؟

قالوا: نعم، وعلى من هاهنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو معرض عن رسول الله إجلالاً له، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم قال سعد: " فأني أحكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء " 332/صحيح السيرة/ صحابة/1388.

وقال:

(فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، عن علقمة بن وقاص الليثي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد: ♂**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**

332/صحيح السيرة / صحابة /1389.

وقال:

(وأنزل الله تعالى في أمر الخندق وأمر بني قريظة في القرآن والقصة في سورة الأحزاب، ويذكر فيها ما نزل من البلاء، ونعمته عليهم، وكفايته إياهم حين فرج الله ذلك عنهم بعد مقالة من قال من أهل النفاق (33: 9){ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩} [الأحزاب: ٩]، والجنود: قريش وغطفان وبنو قريظة، وكانت الجنود التي أرسل الله عليهم مع الريح الملائكة، يقول الله تعالى:

{إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ١٠} [الأحزاب: ١٠].

والذين جاءوهم من فوقهم بنو قريظة، والذين جاءهم من أسفل

منهم قريش وغطفان، ويقول الله تعالى:

{هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾} [الأحزاب: ١١ - ١٢]، لقول معتب بن قشير إذ يقول ما قال:{ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾} [الأحزاب: ١٣]، لقول أوس بن قيظي ومن كان على مثل رأيه من قومه:{ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا} [الأحزاب: ١٤]، أي المدينة.. وقال ابن هشام الأقطار: الجوانب وواحدها قطر...

{ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ} [الأحزاب: ١٤]، أي: الرجوع إلى الشرك {لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾} [الأحزاب: ١٤ - ١٥]، فهم بنو حارثة، وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يوم أحد، ثم عاهدوا الله أن لا يعودا لمثلها أبداً فذكرهم الله الذين أعطوا من أنفسهم ثم قال تعالى:{قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ} [الأحزاب: ١٦ - ١٨]، أي: أهل النفاق{وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا } [الأحزاب: ١٨]، أي:

إلا دفعا وتعذيرا{أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ} [الأحزاب: ١٩]، أي: للضغن الذي في أنفسهم{فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} [الأحزاب: ١٩]، أي إعظاماً له وفرقاً منه{فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ} [الأحزاب: ١٩]، أي: في القول بما لا تحبون، لأنهم لا يرجون آخرة ولا تحملهم خشية فهم يهابون الموت هيبة من

لا يرجوا ما بعده{ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ } [الأحزاب: ٢٠] قريش وغطفان{ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا } [الأحزاب: ٢٠]، ثم أقبل على المؤمنين فقال:{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ} [الممتحنة: ٦]، أي: لئلا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ولا عن مكان هو به، ثم ذكر المؤمنين وصدقهم وتصديقهم بما وعدهم الله من البلاء ليختبروا به فقال:{وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾} [الأحزاب: ٢٢]، أي صبرا على البلاء وتسليماً للقضاء وتصديقاً للحق لما كان وعدهم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم قال تعالى:{مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ} [الأحزاب: ٢٣] أي فرغ من عمله ورجع إلى ربه (كمن استشهد يوم بدر ويوم أحد) 334، 335 / صحيح السيرة / صحابة / 1399، 1400، 1401 (ومنهم من ينتظر) أي ما وعد الله به من نصره والشهادة على ما مضى عليه أصحابه ويقول الله تعالى: {وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٢٣]، أي: ما شكو وما ترددوا في دينهم وما استبدلوا به غيره{ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ } [الأحزاب: ٢٤ - ٢٥]. أي: قريشاً وغطفان{لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ } [الأحزاب: ٢٥ - ٢٦]، أي: بني قريظة (من صياصهم) والصياصي: الحصون والأصنام التي كانوا فيها. " 336 / صحيح السيرة / صحابة / 1404.

وقال ابن إسحاق:

{وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا }[الأحـــزاب:٢٦]، أي: قتـل الرجـال وسـبي الـذراري والنسـاء{ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا} [الأحـزاب: ٢٧]، يعنـى: خيبـر {وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا } [الأحزاب: ٢٧]، 337 / صحيح السيرة / صحابة / 1405.

وهكذا انتصر الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه جند الله لإعلاء كلمة الحق على تحالف قوي الكفر والشرك والوثنية ومن ظاهروهم من اليهود حقداً وكراهية وكيداً للرسول ودعوته لدحر الباطل وعبادة الأوثان وبالانتقال إلى عبادة الواحد الأحد الديان.. واتباع شريعته الوضاءة الخالصة البيان.. وليؤكدوا لمن بعدهم من التابعين أن من قواعد الناموس الأبدية الخالدة:

قـال تعالـى:{إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾} [الحج: ٣٨].

قال تعالى:{ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [الأنفال: ٤٠].

قال تعالى:{وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾} [الصافات: ١٧٣].

ولقد حدثت بعد هذه غزوتان هما غزوة بني لحيان وغزوة بني المصطلق التي حدث أثناءها حديث الإفك ثم فكر الرسول صلى الله عليه وسلم في الذهاب لزيارة موطنه الأصلي مكة التي طالما صدته وصدت المسلمين عنها قريش الباغية التي وصفها الله تبارك وتعالى عقب موقعة بدر بقوله:

قال تعالى:{وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

{وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤} [الأنفال: ٣٤].

* * *